العربية إنما ازدهرت وانتشرت في ظل حضارة الإسلام

بقلم الأستاذ خليل العزيزي

(الاردن)

ان المتتبع لتاريخ العرب يرى أن اللغة العربية قبل الاسلام كانت محصورة فى الجزيرة العربية وما يليها من بعض المناطق مثل مشارف الشام والعراق فى المناطق التي كانت تسيطر عليها دولتا الغساسنة والمناذرة .

وحتى فى داخل الجزيرة نفسها فلم تكن السيادة تامة للسان عربي واحد بل كان فى الجزيرة العربية لسانان هما لغة القحطانيين ولغة العدنانيين وكان البون بينهما شاسعا حتى ذهب أحد ائمة اللغة العربية وهو ابو عمرو بن العلاء الى رفض اعتبار اللغة الحميرية لغة عربية (1) .

كما أن سيادة اللغة العربية فى الجزيرة العربية كانت مهددة كذلك بغزو خارجي .

فنفوذ الحبشة فى اليمن وجنوب الجزيرة العربية كان من المحتمل أن يؤدي الى انتشار اللغة الحبشية فى تلك المناطق لو استمر نفوذ الحبشة السياسي فيها . وكذلك الامر بالنسبة للشمال فنفوذ الفرس والروم السياسي كان لابد أن يؤدي الى سيادة ثقافتهم وبالتالي لغاتهم على مناطق نفوذهم التي كانت تتوسع شيئا فشيئا قبل مجيء الاسلام .

فما الذي حال دون انقسام اللغة العربية فى داخل الجزيرة الى لغات ؟ وما الذي حال دون تغلغل النفوذ الثقافي واللغوي للاقوام المجاورة داخل الجزيرة العربية؟

وما الذي حمل اللغة العربية خارج نطاق الاماكن التي كانت تقطنها القبائل العربية ؟ حتى وصلت الى أواسط الهند وتخوم الصين شرقا والى المحيط الاطلسي وسهول فرنسا وأواسط ايطاليا شمالا وغربا .

لاشك أن العرب قبل الاسلام لم يفعلوا ذلك وان هذا **الامتداد للغة العربية انما كان بفضل الاسلام** ، فمنذ أن بدأت الدعوة الاسلامية بالانتشار سارت معها اللغة العربية باعتبارها لغة كتاب الاسلام وهو القرآن الكريم .

ففي داخل الجزيرة العربية وحد الاسلام العرب على لغة واحدة هي اللغة التي انزل فيها القرآن وهي لغة الشمال أو لغة العدنانيين ، وبعد أن حقق الاسلام الوحدة الفكرية والوحدة السياسية للجزيرة العربية اصبحت لهجة قريش هي اللغة الرسمية فيها وبدأت تتلاشى اللهجات الاخرى المختلفة ولم يبق منها سوى ما تناقله الدارسون والرواة من شذرات قليلة نقلوها كأمثلة على اختلاف هذه اللهجات أو اللغات كما كانوا يسمونها .

أما خطر تغلب اللغات الاجنبية على بعض ارجاء الجزيرة كالحبشية والفارسية والرومية فقد زال بقيام دولة الاسلام القوية التي حفظت الجزيرة العربية قاعدة اسلامية عربية وأخرجت كافة القوى التي يمكن أن يأتي

(1) تاريخ الادب العربي لاحمد حسن الزيات ص 14 .

منها أي خطر سياسي أو ثقافي من جزيرة العرب . أما حمل اللغة العربية خارج حدودهـا القديمة فقد تـولاه الفتح الاسلامي الذي اكتسح جزءا ضخما من قـارات العالم القديم الثلاث في فترة قصيرة من الزمن واصبحت اللغة العربية اللغة الرسمية للدولة الاسلامية في عهود الراشدين والامويين والعباسيين فاقبلت شعوب الاقطار المفتوحة على تعلم اللغة العربية .

أولا ـــ انها ضرورة حتمية للدين الاسلامي الذي أصبح دين اكثرية تلك الشعوب لما رأوه من بساطتـه وجماله وسماحة اهله .

وثانيا ـــ انها اللغة الرسمية التي لابد منها لكل من يريد أن يكون له نصيب من الادارة أو السلطة .

وثالثا ـــ انها تتيح لمن يتعلمها أن يتنقل بين ارجاء العالم الاسلامي في آسيا وافريقيا واوروبا دون أن يحتاج الى معرفة اللغات الاقليمية التـي كانت سائدة قبـل انتشار الاسلام .

هذا تأثير الاسلام على اللغة العربية من حيـث امتدادها الجغرافي غير ان ثمة تأثيرا آخر للاسلام على لغة الضاد **وهو تحويلها من لغة بدائيـة** تكاد تنحصـر مفرداتها بحياة البادية وما فيهـا من حيوان وطبيعـة وادوات حياة بدائية الى لغة حضارة وعلم تستوعـب مطالب الحضارة المعقدة المختلفة وتعبر عن كافة قضاياها ومشاكلها وذلك ان الاسلام اقام في الاقطار المفتوحة مع جزيرة العرب **حضارة جديدة** لها مميزاتها وخصائصهـا الذاتية مستفيدا من الحضارات القديمة التي كانت تسود مناطق العالم الاسلامي **فورثت حضارة الاسلام حضارات الهنود والفرس والرومان واليونان والمصريين والبابليين والاشوريين والفينيقيين وشعوب شمال افريقية وقوط اسبانيا** وصهر جميع هذه الحضارات وضم اشتات تلك المجتمعات بحضارة جديدة يمثلها المجتمع الاسلامـي ، وكان لابد لهذه الحضارة الجديـدة من لغة تعبر عـن محتواها فكانت اللغة العربية وما كان **للغة العربية ان تكون كذلك لولا الاسلام .**

وبذلك كانت اللغة العربية في المجتمع الاسلامـي لغة الدين وما تفرع عنه من دراسات فقهية وعقائديـة وقانونية وهي **لغة العلوم الطبيعية التي ازدهرت في ظل حضارة الاسلام وهي لغة الفلسفة وهي لغة الادب .**

بل بفضل الاسلام وحضارته كان المثقفون مـن ارجاء العالم غير الاسلامي يضطرون الى تعلم اللغـة العربية باعتبارها لغة العلم والادب مما دفع بعض ملوك اوروبا وباباوات روما الى جعل **اللغة العربيـة اللغـة الاولى في بلاطهم ونشاطهم الثقافي .**

أما تأثير اللغة العربية على انتشار الاسلام وفرض انه لو لم تكن اللغة العربية هي لغة القرآن لما انتشـر ذلك الانتشار فرغم ان هذا الفرض يوحي بمـا للغـة العربية من خصائص الجمال والجاذبية والمرونة الا ان الواقع لايؤيد هذا الفرض وذلك ان انتشار الديـن اي دين في امم الارض لم يقترن يوما بلغة هذا الدين فالبوذية والمسيحية والاسلام وهي اكثر اديان العالم اتباعا واتباع هذه الديانات لاتتكلم اكثريتها لغة الدين الاصلية بل انه لا يتكلم لغة الانجيل الاصلية (وهي السريانية) أحـد من اتباع المسيحية .

والفضل الاول لانتشار اي دين انما هو في أمرين اثنين أولا طبيعة تعاليم هذا الدين كتجاوبها مع حاجات الانسان وبساطتها وسهولة فهمها ، والثاني نشاط دعاة الدين والطريقة التي يعرضونه فيها على الامم الاخرى.

وقد تهيأ للدين الاسلامـي من بساطـة عقيـدة وتجاوبها مع حاجات الانسان سواء كان انتماؤه لمجتمع متطور كالمجتمعات الرومانية والفارسية أو لمجتمع بدائي كشعوب افريقيا ، كما تهيأ لهذا الدين دعاة مخلصون هم الرعيل الاول من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم وتلامذتهم الذين تجردوا للدعوة واحسنوا حملها وعرضها وكانوا القدوة الحسنة والمثال العملي لتعاليم الاسـلام وما فيها من مبـادىء العـدل والمسـاواة والانسانية .

ومما يؤيد ان طبيعة الاسلام ونشاط دعاته همـا عاملا انتشـاره ان اغلبية المسلمين في العصر الحاضر ليسوا من الشعوب التي تكلمت اللغة العربية أصلا أو أنها تكلمتها في حقبة من تاريخها ثم تركتها وعادت الـى لغاتها القومية بعد تصاعد الاتجاه القومي والاقليمي في كثير من الاقطار الاسلامية وخاصة في القرنين الاخيرين.

* * *

ان الوعي الاسلامي والوازع الديني سواء في بلدنا او في اي قطر اسلامي يتأثران بمؤثرات شتى ومختلفـة قد تكون اقوى من تأثير اللغة فالتغيـرات الاجتماعيـة والمشاكل الاقتصاديـة والسياسيـة والمدنية الغربيـة المروجة وما تمارسه من ضغط اجتماعـي واخلاقـي وسياسي عن طريق وسائل اعلامها والقوى الدائـرة في فلكها تشد الناس نحو نمط معين من الحياة وترويـج

مذاهب اجتماعية وسياسية واخلاقية وفنية شتى فى المجتمعات الاسلامية كل ذلك يؤثر فى الوعي الاسلامي والوازع الديني ، كما ان الاتجاهات الفكرية التي تبدو وكأنها منبثقة فقط من داخل المجتمعات الاسلامية لها اكبر الاثر فى التأثير على الاسلام فى تلك المجتمعات فحركة مصطفى كمال فى تركيا كان لها أكبر الاثر على الاسلام فى تركيا بل وفى العالم الاسلامي كله اذ اتجه فى محاولته لتطوير تركيا الى دولة عصرية الى محاربة الاسلام وتقاليده وقطع علاقة تركيا بالشعوب الاسلامية الاخرى وخاصة العربية وقضى على الخلافة واتجه بتركيا كليا نحو الغرب وحضارته ومثله مع انه كان باستطاعته أن يحضر تركيا ويطورها مع ابقائها اذ ان الطاقة المبذولة لصراع الاسلام وهو دين ثابت الجذور عميق الاسس فى الشعب التركي ستحول هذه الطاقة من الهدم الى البناء ومن مصارعة الدين الى تنظيمه ومن هنا فشلت تجربة الاتاتوركية فى تركيا من عزل هذا البلد المسلم وسلخه عن الشعوب الاسلامية كما فشلت كذلك فى تطوير تركيا بأسرع مما تطورت فيه شعوب اسلامية اخرى لم تسلك نفس السبيل .

ومن مثال تركيا يمكننا أن نفهم كثيرا من الحركات السياسية والاجتماعية التي اثرت فى المجتمعات الاسلامية .

الا انه لاينكر تأثير اللغة العربية على الوعي الاسلامي عندما تتوفر عناصر هذا الوعي فان البلاد الناطقة باللغة العربية اقدر على فهم الاسلام لقدرتها على فهم القرآن والحديث وهما المصدران الاساسيان لتعاليم الاسلام ، أكثر من غيرها من الشعوب التي لاتتكلم العربية . الا انه فى نفس الوقت قد يكون فى بعض الاقطار الاسلامية غير العربية وعي اسلامي اقوى واشد مما فى بعض الاقطار الاسلامية العربية لاسباب أخرى كوجود قيادة اسلامية نوعا ما فى تلك الاقطار ولاشك أن باكستان خير مثال على ذلك .

* * *

اما تأثر اللغة العربية بالوعي الاسلامي فهو ولا شك وارد ، والواقع التاريخي للشعوب الاسلامية في الماضي والحاضر يؤكد هذا التلازم بين اللغة العربية والاسلام اذ انه كما سبق وبينت أن اللغة العربية انما سارت وانتشرت فى ركاب الاسلام وحلت حيثما حل ثم مضى الاسلام وحده الى كثير من الارجاء التي لم تتمكن اللغة العربية من اقتحامها او انحسر مد اللغة العربية وبقي الاسلام . وقد كان الاسلام المؤثر الاول فى الدراسات اللغوية الراقية والمؤلفات اللغوية والادبية المختلفة التي ملأت المكتبة العربية منذ القرن الثاني الهجري كما أن الاسلام هو الذي دفع كثيرا من الباحثين من غير العرب للتخصص فى مباحث اللغة العربية وآدابها والكتابة فيها ولاشك أن عبد الحميد الكاتب وابن المقفع وسيبويه ونفطويه وابن العميد والزمخشري وغيرهم من المسلمين غير العرب خدموا اللغة العربية والادب العربي كأحسن ما يخدم صاحب لغة لغته رغم أصلهم غير العربي .

كما ان **تبني بعض الشعوب الاسلامية غير العربية للغة العربية** حتى عصرنا الحاضر انما يعود الفضل فيه الى الاسلام فانتشار اللغة العربية فى **الصومال والسنغال ونيجيريا وموريتانيا** وبعض أرجاء **ايران وتركيا** انما يعود لارتباط شعوب هذه المناطق بالاسلام ولا تزال الامم الاسلامية كلها رغم تركها للغة العربية كلغة اساسية رسمية تستعملها كلغة دينية تتفاوت فى فهمها ولا تزال ايران وباكستان ومسلمو الهند يستعملون **الاحرف العربية لكتابة لغاتهم القومية** .

كما ان قوة اللغة العربية فى الاقطار العربية نفسها ترتبط الى حد كبير بالوعي الاسلامي فقد ظهرت فئة من المتأدبين ومنتحلي البحث فى كثير من أرجاء الوطن العربي يدعون **الى هجر اللغة العربية الفصحى واحلال اللهجات العامية** محلها فى البحث والعلوم والادب وحاولوا الترويج لدعوتهم التي تحمل فى ثناياها الاماتة التامة للغة العربية وتؤدي الى قطع ماضي اللغة العربية بحاضرها كما يؤدي انتشار اللهجات العامية لو تم — لا سمح الله — الى تقطيع اصرة التفاهم الوحيدة بين شعوب الاقطار العربية وهي اللغة العربية الفصحى اذ ان اللهجات العامية فى الشعوب العربية متباينة اشد التباين وانه لاهون على العربي فى الاردن وسوريا ومصر والعراق أن يتفاهم مع العربي فى الجزائر والمغرب العربي بلغة اجنبية من أن يتفاهما كل بلغته العامية وقد جربت ذلك بنفسي مع عربي من المغرب التقيت به مرة فى أوروبا وكان لايحسن الفصحى فلم نستطع اطلاقا أن نتفاهم هو بلغته المغربية العامية وأنا بأردنيتي الا بالفصحى مع القليل مما اعرفه من العامية المغربية .

والذين وقفوا فى وجه تيار العامية هم الذين يؤمنون بالارتباط بين اللغة العربية والاسلام والذين روجوا هم الذين يتمنون أن ينسلخ العرب عن الاسلام

وقد صرحوا بذلك تارة واخفوه تارة ولولا قوة الوعي الاسلامي وتأصل الاسلام بأكثرية الشعب العربي لكان لهذه الدعوات الهادمة نجاح ولادى ذلك الى زوال العربية بالتدريج وقيام لغات محلية تنفصل على المدى البعيد كليا عن اللغة العربية كما حدث بالنسبة للغة اللاتينية التي انقسمت الى لغات اقليمية وقومية لاتفاهم الآن بين المتكلمين بها كالاسبانية والبرتغالية والايطالية .

* * *

ومن المسلم به ان **مفردات ومصطلحات اي لغة انما تتكون من مجموع التراث الفكري والحضاري لتلك اللغة** وعلى قدر عمق الحضارة وسعتها وشمولها يكون عمق اللغة المعبرة عن تلك الحضارة ويكون شمولها وسعتها .

والدين من اهم دعائم الحضارات عامة واهم دعامة قامت عليها الحضارة الاسلامية بصفة خاصة . وقد تبين لنا مما سبق كيف كان دور الاسلام فى نشر اللغة العربية وتطويرها وجعلها لغة العلم والادب للمجتمع الاسلامي الكبير .

ورغم ان كثيرا من الاقطار الاسلامية غير العربية تركت استعمال اللغة العربية كلغة رسمية وانصرفت الى لغاتها المحلية الا ان تأثير الدين بالقوم وتأثرهم بالقرآن الكريم الذي يقرأونه ويحفظونه وقد لا يفهمونه جيدا جعل من **اللغة العربية والتراث العربي مصدرا أساسيا** تستمد منه تلك اللغات المختلفة كثيرا من مفرداتها وتعبيراتها .

ولا يحتاج من يسمع الى اهل **ايران** وهم يتكلمون الفارسية او الى اهل **باكستان** وهم يتكلمون الاوروبية لايحتاج السامع اليهم الى أن يكون متخصصا بتلك اللغات ليعرف أن **نسبة كبيرة من مفردات هاتين اللغتين من أصل عربي** . وقس على ذلك كثيرا من لغات افريقية كاللغة السواحلية والهررية واللغات المحلية فى السنغال والصومال ونيجيريا وكينيا وغيرها من الاقطار الافريقية التي تضم نسبة عالية من المسلمين .

وحتى الجاليات الاسلامية المنقطعة كليا عن العالم الاسلامي جغرافيا كالمسلمين فى بعض أرجاء اوروبا وامريكا يدخلون بحكم تأثرهم بالقرآن والدين كثيرا من الالفاظ العربية التي يشعر المسلم ان ترجمتها لاتؤدي المعنى الدقيق الذي تؤديه مفردات الاصل العربي وعلى قدر نحو تلك الجاليات ومكانتها بالمجتمع تتزايد قدرتها على اشاعة واستعمال امثال تلك التعبيرات .

* * *

اما تأثير اللهجة الاقليمية فى التعابير العربية المحلية فى الاردن فانه يبدو لي انه من المقارنة السريعة بين اللهجة الاردنية واللهجات العربية الاخرى ان اللهجة المحلية لسوريا الكبرى التي تضم سوريا والاردن وفلسطين وكذلك الاجزاء الغربية والجنوبية من العراق اقرب اللهجات المحلية للفصحى واكثرها تأثرا وبالتالي تأثيرا فيها الا انني ارى من ناحية اخرى ان هذا الموضوع يحتاج الى دراسة اعمق فى بحث مستقل لا يتسع له المقام .

* * *

وفى خصوص المكانة التي يجب ان تحتلها اللغة العربية بالنسبة للغات الاجنبية فى الاردن نرى انه مما لاشك فيه ان اللغة العربية هي التي ينبغي أن تكون وحدها **لغة الدولة ولغة العلم والتدريس** فى جميع مراحل الدراسة حتى نهاية الدراسات الجامعية العليا وان تعمل الدوائر العلمية المختصة الى اتمام النقص فى هذا الجانب **بترجمة جميع مصطلحات العلوم والمعارف والفنون الى اللغة العربية** اذ انني اومن انه اذا ارادت الامة العربية أن تحقق التقدم الواجب تحقيقه فى مجال العلم والمدنية الحديثة لابد ان تكون **اللغة العربية فيها هي لغة البحث العلمي** ليستطيع كل مثقف ان يساهم فى حقله وميدانه بنصيبه من البحث الذي يخدم تطوير المجتمع وحتى يكون العلم النافع فى جميع حقول المعرفة ميسرا لكل قارىء فى هذه اللغة .